# المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب محمد

# الأدب العربي في القفقاس الشمالي

بقلم ـ الاكاديمي ، البروفسور :

**اي • يو • كراجكوفسكي**

ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور

جليل كمال الدين

الاستاذ المساعد في قسم اللغات الاوربية
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

[ من المترجم ـ كلمة أولية :

١ ـ هذه دراسة غاية في القيمة والاهمية عن تأثير أدبنا العربي في آداب شعوب القفقاس عقدها شيخ مدرسة الاستعراب السوفيتي ،إي• يو• كراجكوفسكي ، ضمن سلسلة دراساته المتلاحمة في فصل كبير عنوانه « الثقافة العربية في القفقاس الشمالي » ( ضمّ دراسة عن « داغستان واليمن » ترجمناها لمجلة المورد ،ودراسات اخرى عن ثورة الامام شامل في داغستان ورسائله العربية غير المنشورة ،والمؤلفات التي كتبها الأدباء والمؤرخون الداغستانيون ، باللغة العربية ، عنه وعن حربه مع روسيا القيصرية ، في القرن التاسع عشر ) •

٢ـ وقد كتب كراجكوفسكي هذه الدراسة، أصلاً ، لتنشر في « أنباء اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي » ، النشرة ١٩٤٨/٧/١ ، ص ١٣ ـ ٢٤ • ثم ضمّها الى دراسات اخرى تشاركها في الموضوع والمنطلق ، لتظهر في فصل « الثقافة العربية في القفقاس الشمالي » ، المنشور ضمن مختارات اعمال كراجكوفسكي •

٣ ـ ان هوامش المؤلف مثبتة في ختام الدراسة ، مع تعقيبات المترجم • أما هوامش المترجم فهي مثبتة في الحواشي • وقد اضطر المترجم لتصرف ضئيل جدا لكنه ضروري ] •

لقد كان القرن التاسع عشر ـ القرن الاول لظهور الاستعراب العلمي في روسيا ـ شاعدا، بشكل متميز ، على الخطوط اللاحقة لتطور هذا الاستعراب .

على تخوم القرن العشرين كان مؤسس مدرسة الاستشراق الروسي الجديد ـ الاكاديمي ف.ر. روزين(*) ( المعلم الاثير لقادة علمنا ـ اولدنبورغ ، مار ، بارتولد ) قد دعم ، بكل ما اوتي من نشاط، دور استعرابنا : هذا الدور الذي يتجلى في ان لاستعرابنا الحق في الحكم المستقل في كافة المسائل، الناشئة في العلم العالمي ، ولكنه مدعو ، قبل كل شيء الى حسم تلك المهام التي تشخص في هذا المضمار امام بلادنا ، والى بحث تلك المواد التي ترتبط بها على نحو مباشر .

لقد اكدت الثلاثون عاما المنصرمة صواب وخصب مثل هذا التوجه ، فقد اسفر الاهتمام الممنهج بالمشكلة الاخيرة ، في الفترة التي تلتفت اليها الان بلادنا كلها(**) ، عن اكتشافين بارزين :

— اللهجات العربية غير المعروفة سابقا والفولكلور العربي الثر في آسيا الوسطى ، من جهة .

— والادب العربي في القفقاس الشمالي ، غير المعروف تقريبا حتى الاونة الاخيرة ، من جهة اخرى .

ان هذين الاكتشافين يقفان معا في صف النتائج الكبرى لعمل مستعربينا في عهد ما بعد ثورة اوكتوبر .

(*) يجل المستعربون والمستشرقون السوفييت روزين اجلالا كبيرا ، ويتحدثون باستمرار ، عن الخصوصية التي اتت بها للاستعراب الروسي والسوفييتي اعماله العلمية . وبراجع في ذلك ما كتبه كراچكوفسكي وشيرباتوف عن روزين وعن الاستعراب في روسيا ( المترجم ) .

(**) المقصود بهذه الفترة ـ الحقبة الزمنية ( ٣٠ عاما ) التي مرت بعد ثورة اوكتوبر ( ١٩١٧ ) حتى تاريخ كتابة كراچكوفسكي ( ٤٧ ـ ١٩٤٨ ) . وهي حقبة بالغة الاهمية في تطور الاستعراب السوفييتي ، واكتسابه ملامحه المميزة المستقلة ، وقد اسهم في اكتشافاتها علماء مستشرقون ومستعربون من روسيا واوكرانيا واسيا الوسطى والقفقاس والجمهوريات الاخرى ( المترجم ) .



ان كون اللغة العربية منتشرة على نطاق واسع ، في فترات مختلفة من تاريخها ، وراء حدود الاقطار العربية ذاتها ، هو امر مشهور ، منذ امد بعيد ، في العلم ، غير ان القفقاس الشمالي يتميز ، في هذا الخصوص(***) .

ولنتذكر ، انه ، منذ عام ١٩١٢ ، كان عارفتنا الاكبر بتاريخ الشرق ، ف.ف.بارتولد ، قد كتب يقول :

« ان معرفة اللغة العربية هي ، الان ايضا ، اكثر انتشارا ، هنا ، مما هي عليه في اغلب الاقطار المسلمة ذات السكان غير العرب »(١) . وفي الوقت الحاضر ، فاننا نستطيع ، بمطلق الحق ، ان نواصل هذه الفكرة ، وان نقول انه ليس ثمة ، في اي قطر غير عربي ، ادب محلي نشأ بالعربية قد استطاع ان يدخر في نفسه مثل هذه الحيوية ، حتى الربع الثاني من القرن العشرين .

وبهذا كان يمكن الاقتناع بسهولة ، منذ عشرينات القرن ، عبر الناطقين الاحياء باللغة والادب العربي ، من القوميات المحلية في القفقاس الشمالي، وبشكل اساس : الانفوش ، والاڤاريين، من سكان داغستان . فبينهم ليس صعبا ان نلتقي بالاشخاص الذين لايمتلكون ناصية اللغة العربية الفصحى فقط، بل ويعرفون ، خير المعرفة ، قوانين العروض العربي وكافة الاساليب التقليدية للشعر العربي الكلاسيكي، ويستثمرون انماطه في عملهم الادبي .

وقد كان لحقيقة كهذه ان تخلق انطباعا قويا ليس في المستعربين الاوربيين ، ممثلي العلم النظري فحسب ، بل وفي العلماء العرب الاصليين ، انفسهم .

ففي احد معاجم السير، المصنف في اليمن (في جنوب البلاد العربية ) ، في نهاية القرن الثامن عشر ، يذكر عالم من بلاد داغستان « الواقعة على مبعدة مسيرة شهر من اصقاع بلاد الروم » أي آسيا الصغرى .

(***) من جمهوريات القفقاس السوفييتي داغستان ، التي يتركز عليها الحديث هنا . وفي القفقاس مناطق واقاليم ذات حكم ذاتي وجمهوريات ذات حكم ذاتي ( اللانفوش والچچين والشركس والقاباردين والكالماك وغيرهم ) . اما جمهوريات ( ما وراء القفقاس ) فهي ثلاث ، اذربيجان وارمينيا وجورجيا ، وتقع داغستان في المناطق الشمالية من القفقاس ، ولم يستطع القياصرة اخضاعها الا في اواخر القرن التاسع عشر ( المترجم ) .

لقد شد الرحال الى صنعاء ، عاصمة اليمن ، بحثا عن احد الكتب،وقد التقى مؤلف المعجم به في المدرسة المحلية : وتجاذب اطراف الحديث معه .

ولاحظ قائلا : « اني لم ار قريبا له في احسان التعبير البليغ ، واتقان اللغة الفصحى ، وتجنب السوقية والابتذال في الحديث ، والتلفظ الرائع . وعند سماع كلماته تملكتني الغبطة والحبور ، حتى حتى ان رعدة سرت في اوصالي »(٢) .

وهنا ، فان ذكر غياب السوقية يؤكد لنا ان الحديث قد جرى ليس بلهجة الحديث الاعتيادية . وهكذا ، فليس في ليننغراد القرن العشرين فقط . بل وفي صنعاء القرن الثامن عشر ايضا ، كان الداغستانيون قد احدثوا انطباعا متمائلا بمعرفتهم للغة العربية الفصحى .(*)

وقد حظي الداغستانيون بالتقدير في الاقطار العربية الاخرى ايضا . فان معجم السير ، المصنف في نهاية ذلك القرن الثامن عشر ، في حلب ، يسمي لا اقل من خمسة داغستانيين ، كانوا قد توطنوا في دمشق او حلب كمدرسين للغة العربية والعلوم القواعدية . وكان بعض منهم مشهورا باعماله العلمية ايضا ، باللغة العربية(٣) .

ولنذكر ، اخيرا ، ان دارس الاسلاميات ، الهولندي البارز ، سنوك هورغرونيه ، الذي حل في مكة في ثمانينات القرن الماضي ، بصفة رجل مسلم ، فتعرف جيدا على زملاء العلم المحليين . الذين كانوا بالكاد يتألفون من ممثلي كافة الاقطار الاسلامية ، قد كتب يقول : « يتحدر من داغستان بعض من افضل علماء المدينة المقدسة . وقبل امد قصير من قدومي الى مكة توفي العالم المشهور عبدالحميد الداغستاني ، وهو عالم يضع كثير من الزملاء سعة معارفه واطلاعه في مصاف ارقى مما هو موجود لدى السيد دحلان . اما ابنه محمد فيكرم اباه ، بانتسابه باجماع الراي العام ، الى ستة من افاضل مفسري القرآن في مكة »(٤) .

اما المذكور زيني دحلان ، وليد مكة ، فهو يكاد يكون الممثل الاكبر للعلم المدرسي في قلب بلاد العرب ، في اواسط القرن التاسع عشر . وهكذا .

(*) في دراسة كراچكوفسكي « داغستان واليمن » ، كثير من التفصيلات الوافية ، اللازمة لمعرفة مكانة اللغة العربية الفصحى والتقاليد اللغوية والادبية العربية لدى علماء داغستان في تلك الحقبة من الزمن ( المترجم ) .

فان الداغستانيين قد تجلوا ، خارج حدود وطنهم ايضا ، وفي كل مكان ، حيثما ساقهم القدر ، اناسا مواضع ثقة ، معترفا بهم من قبل ممثلي العالم الاسلامي اجمالا »(**) .

## - ٣ -

ومن الطبيعي ان يمثل امامنا هذا السؤال : منذ متى كانت داغستان (والقفقاس الشمالي عموما) قد احتلت هذا الموقع الرفيع ، وبأية حقبة من الزمن يمكن ان نؤرخ انتشار اللغة العربية ، وانتشار الادب المحلي الاصيل المكتوب بها ؟

واذا ما ميزنا هذين السؤالين ، فان الجواب السؤال الاول منهما سيكون غير صعب . ففي الادبيات العلمية والشعبية يشار ، عادة الى ان الموجة الاولى لانتشار الثقافة العربية مضت في اثر الفتوحات المبكرة ، التي حدثت ، مع الهيمنة الادارية ، نشرا الدين الاسلامي في المنطقة ، وتعريبا لها ، ولو ان هذا لم يكن ، دائما ، سريعا وعميقا .

اما اقدم تواريخ هذا التقدم الى القفقاس فاننا نعرفها جيدا : فقد ثبتتها المصادر الروائية العربية ، والشواهد المادية ، والادبيات التاريخية المحلية بلغات القفقاس ايضا . ان هذه التواريخ تقودنا الى النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، اما الى النصف الاول من القرن الثامن فينسب تاريخ توطد اقدام العرب في ما وراء القفقاس .

ومعروفة ، هنا ، الحقائق التي حللت ، غير مرة ، من قبل مؤرخينا ، والمؤرخين القفقاسيين ، وبخاصة ، من قبل العالم الجورجي ، الاكاديمي س.ن. جاناشيا ، في اواسط الثلاثينات(٥) .

ان استخدام اللغة العربية في الظروف المحلية وفيما يتعلق بالاحداث المحلية ، في تلك الحقبة من

(**) انتشر الداغستانيون ، في مدى قرنين من الزمان ، ولشتى الاسباب ، والاغراض ، في عموم البلدان العربية ولم يقتصروا على اليمن والحجاز ، بل حلوا في العراق والاردن وفلسطين وسورية ولبنان ، ومصر ، وحل بعض منهم في بعض اقطار المغرب العربي ، ناهيك عن وجود عدد لابستهان به من الداغستانيين في تركيا . والداغستانيون مسلمون شديدو التدين ، وهم في الاصل ـ جبليون ، اقوياء الشكيمة ، ويتميزون بذوق شعري مرهف ، كان للعروض العربي والاشعار العربية دور متميز في تنشئته ، كما يشير الى ذلك حمزاتوف ، شاعر داغستان المعاصر ( المترجم ) .

الزمن، امر لا يطاله الشك. فقبل عشرة اعوام(*) عثر على مقربة من تفليس ، وبين احجار الطريق ، على حجر يحمل كتابة عربية من ايام الخليفة عبدالملك ابن مروان ، اي بداية القرن الثامن الميلادي(٦). اما الكتابات العربية على العملات الجورجية ، في العصور المختلفة ، فمعرفة منذ امد بعيد . وكان دارس القفقاس، ا. ن. غينكو ، الذي توفي في بداية الحرب ، قد لفت الانظار الى الاشعار العربية المكرسة لاحداث القفقاس منذ اواسط القرن السابع(٧) . ان جملة من الحقائق سوغت له بالتحدث عن التاثير العربي الكبير على سكان جنوبي داغستان في ذلك العصر(٨**) .

وانه لامر مغر جدا ان تعزى الى هذا الوقت اصول الادب المحلي باللغة العربية. غير ان مما يناقض هذا ليس فقط غياب الشواهد المناسبة ، التي ما كانت لتستطيع الصمود منذ تلك الفترة المبكرة ، بل وتناقضه ، ايضا ، التقاليد التاريخية المحلية ، التي نستطيع ان نعتبر حسن القادري ، عالم القرن التاسع عشر ، معبرا عنها . فانه لمعروف جيدا ، في الاوساط العلمية ، راي هذا العالم ، الذي اورد ، غير مرة، والذي شاطره فيه ف. ف. بارتولد ايضا. ففي الحديث عن داغستان ، يبلور القادري نظرته على الوجه التالي : « ثمة كثير من الاعتبارات للافتراض انه لم تكن عناية خاصة من جانب الحكام، هنا ، بالعلم والمدارس ، ذلك لانه ليس ثمة ، في ايما قرية او مدينة ، بقايا ملحوظة من الكتب القديمة الكثيرة ، وخلال الف عام بعد الهجرة لم تكن قد اعدت ايما مكتبة ، في اي مكان ، هنا بل ان تحديد ماهية العلماء الذين كانوا هنا ، انذاك ، والحصول على وثيقة مكتوبة ، او حكاية معتمدة ، بات موضوعا للبحث والدراسة . ومن الكتب القديمة التي تصادفها في المدارس والمساجد المحلية ، يتضح امر واحد فحسب ، يفيد ان معظمها قد اعد وصنف في الاونة الاخير ، وعلى نحو اساس في بداية القرن الثاني عشر الهجري ( القرن الثامن عشر الميلادي ) ، في عصر قائد العلماء ــ حاجي محمد افندي بن موسى قودوتلينسكي »(***) .

(*) المقصود ــ قبل عشرة اعوام من كتابة هذه الدراسة في عام ٤٧ ــ ١٩٤٨ ، اي في ٣٧ ــ ١٩٣٨ ( المترجم ) .

(**) ان دراسات غينكو ، والحق يقال ، اضافة قيمة للتاثير العربي على سكان داغستان ، ولعل العمر سيمتد بنا لنقلها الى العربية ، فهي تكمل دراسات كراجكوفسكي وتتلاحم معها ( المترجم ) .

(***) هو محمد بن موسى ، الذي يتردد اسمه ، كثيرا ، في اشارات حسن القادري ، وفي دراسات كراجكوفسكي في تاثير الثقافة العربية والادب العربي في القفقاس الشمالي ، وانما اسمي ( قودوتلينسكي ) ــ نسبة الى قريته ( قودوتل ) ، وهذه النسبة روسية ، كما هو واضح . ( المترجم )

(*) يذكر هذا ( الرينيسانس ) الحضاري ، والبعث الخاص للثقافة العربية في داغستان وسواها ، والرينيسانس الاوروبي والبعث الخاص للثقافة اليونانية ، ولبراغينسكي دراسات ، تستحق الاهتمام، في دور الشرق ، عامة ، والشرق العربي ، خاصة ، في ( الرنيسانس ) وانجازاته العلمية والثقافية والحضارية، وترد هذه الدراسات ، ردا علميا حاسما، على المقولات التي تضع لاوربا ، دائما ، الصدارة في العلم والثقافة في ماض وحاضر ، واملنا سنترجم هذه الدراسات قريبا ( المترجم ) .



لقد اشتغل بتحليل مثل هذا التناقض بين النوغل المبكر للعرب في القفقاس والاشارة المحددة الى التقاليد المحلية عن ظهور الادب العربي ، هنا ، في بداية القرن الثامن عشر فحسب ، اشتغل به آ.ن. غينكو . في اخر عمل له ، مع الاسف ، عام ١٩٤١ . وقد قيظ له ان يأتي بايضاح كبير لهذه المسألة ، وان يبين ان للتقاليد المحلية اسسها المهمة الخاصة بها .

وهكذا ، فانه ليرتسم في افق البحث، بتحديد بين ، انه في نهاية القرن السادس عشر ــ بداية القرن السابع عشر ، يلاحظ في داغستان « بعث » ( رينيسانس ) خاص للثقافة العربية القروسطية وعند هذا الوقت يتزحزح ، متوسعا ابعد فابعد ، الحد الشمالي للتاثير العربي(*) .

فاذا كان الامر قبلا ، في القرن الثاني عشر ، القرن الثالث عشر ، وكما يمكن الحكم وفقا للشواهد المبنية على العبارات المقتبسة ، اذا كان الحد الشمالي للتاثير العربي يمر بدربند ، تقريبا ( من ناحية خط العرض ) ، فانه الان ، وبصفة مراكز لهذا البعث العربي ، تتشخص امام الناظر مناطق بعيدة ، جوهريا ، الى الشمال من الحدود المشار اليها . ومن اقدم رجالات هذا البعث نعرف ثلاثة آفاريين وثلاثة دارغينيين، كانوا قد مارسوا عملهم، بالمناسبة ، على مدى القرنين السابع عشر ــ الثامن عشر .

ان الدراسة التفصيلية لعملية نشر الاسلام في داغستان تقود الى ان التصور التقليدي بالنسبة الى القرن التاسع عشر ــ القرن العشرين عن الانتشار

القديم للاسلام بين سكان داغستان الجبليين ينبغي اعتباره وهما(١٠) . ان هذا يتأكد بظرف ان اكثرية المخطوطات المحفوظة تعود ؛ من حيث وقت ظهورها، الى عصر لا ابعد من نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر .

ان استنتاجاً من هذا القبيل مهم للغاية بالنسبة لنا . فهو ينسجم مع تلك الفرضية ، التي تقود اليها المقارنات والخطوط المتوازية في تاريخ انتشار الثقافة العربية . ففي القفقاس نستطيع ان نتابع موجتين للتأثير العربي : الاولى ـ الموجة الماضية مع الفتوحات المبكرة ؛ وهي لم تمس ؛ عميقا ، سكان ما وراء القفقاس المحليين ، اما الثانية ـ فهي الموجة النامية ببطء ، اعتبارا من القرن السادس عشر ، والتي انشات ، تدريجيا ، في مناطق داغستان ، وچچين ، وانغوشيا ، ولحد ما في مناطق قاباردیار والشركس ، ادبا محليا اصيلا باللغة العربية .

ولا تشكل هذه الظاهرة شيئا ما استثنائيا . ذلك انها تندرج ، حلقة اساسية في تلك الحركة العامة ، التي وسعت ، للغاية ، المنطلق الجغرافي لانتشار اللغة العربية والثقافة العربية . فبعد القرن الخامس عشر ، تشق اللغة العربية طريقها الى الهند وارخبيل الملايو، وافريقيا الوسطى، واسيا الصغرى والبلقان ، واخيرا الى حدود روسيا ـ الى تاتاريا، والقرم ، والقفقاس الشمالي . وفي هذه الاونة ، بالذات ، يحتضر استقلال الاقطار العربية ـ فلنتذكر انه في عام ١٤٩٢ يدخل الاسبان المسيحيون الى غرناطة ، وفي عام ١٥١٧ يخضع الاتراك مصر ـ ؛ ولكن في هذا الوقت نفسه كانت اللغة العربية تخضع باستمرار اقاليم جديدة ، وتحيي الابداع المحلي في كل مكان(*) . فحوالي عام ١٥٧٧ يكتب واحد من المالاباريين عن انتشار الاسلام في مالابار والصراع مع البرتغاليين ؛ وعند عام ١٥٤٠ يتحدث احد الصوماليين عن الحرب مع اثيوبيا ، ويصنف سليل تمبكتو ، في اواسط القرن السابع عشر ، تاريخ السودان . وفي ذات الوقت يفذلك احد الاتراك ، في عرض بيبليوغرافي ضخم معطيات شواهد الادب العربي حتى عصره هو .

وتكتب كافة الشعوب والقوميات ، من جديد، باللغة العربية ، كما كان الامر في عهد الخلافة في القرن التاسع ـ العاشر .

ان هذه الفترة بالذات ، وليس عصر الجبروت السياسي الضخم للدولة العربية ، هي التي ينبغي اعتبارها ذروة الانتشار الاقصى للغة العربية في العالم . ان هذه الموجة الثانية والكبيرة تجتاح القفقاس الشمالي ايضا . ولا تدعم التواريخ المثبتة، هنا ؛ التقاليد التاريخية المحلية التي يعبر عنها حسن القادري ، المذكور آنفا ، فقط ، بل وتدعمها ايضا الحقائق والشواهد التاريخية(**) .

## ـ ٥ ـ

ان التقاليد التاريخية العربية تنسب الى عام ١٦٩٨ تاريخ وفاة الشيخ صالح اليمني ، الذي تسميه المصادر معلما لرعيل العلماء الداغستانيين . وفي عام ١٧٠٨ توفي احدهم ، وهو محمد بن موسى من قرية ( فودوتل ) ، وهو رجل تعتبره التقاليد المحلية مؤسس العلوم الداغستانية كافة . ولعلنا مدعوون للملاحظة انه قد توفي في حلب ـ وتلكم حقيقة

(*) لاشك ان ذلك يشهد لمبقرية اللغة العربية والثقافة العربية ـ الاسلامية ، وانسانيتها ، وشموليتها ، ومرونتها ، بحيث ان الكثير من الشعوب كانت تبدع آدابها الخاصة بها ، شكلا ومضمونا ، دون ان تقسر على ذلك ، بل ان هذه الاداب القومية ( العربية ) ازدهرت ، كما يؤكد كراچكوفسكي ، في عصر انحسار السيطرة السياسية العربية . ( المترجم )

(**) ان ازدهار الادب الداغستاني، باللغة العربية ( وليس بالحرف العربي ) انما يشهد لمكانة اللغة العربية والادب العربي والثقافة العربية الاسلامية لدى الداغستانيين والقفقاسيين عموما . ان هذا الازدهار يفترق ، ولاشك، عن ازدهار الادب الفارسي والادب التركي ( المكتوبين بالحرف العربي في تلك الاونة ـ القرون : السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين ) . وكان بامكان الداغستانيين وسواهم من القفقاسيين ان يكتبوا ادبهم بالحرف العربي فحسب ( كما فعل ذلك الاذربيجانيون والفرس والاتراك والاوزبك وسواهم ) ، فللداغستانيين لغتهم ، التي هي احدى لغات الشعوب الناطقة بالتركية ( او كما تسمى اللهجات التركية ) . انما نزوع الداغستانيين الخاص الى الكتابة والنطق ، اساساً ، بالعربية، والى ابداع ادبهم المحلي، القومي، بالعربية ، بشير ، ولاشك ، الى خصوصية خاصة تميز الثقافة الداغستانية ، والادب الداغستاني ، والسمات الحضارية ـ الانسانية ـ التاريخية التي لميز المجتمع الداغستاني ، والقومية الداغستانية وجدير بالذكر ان الكتابة بالعربية ، في داغستان لم تكن سمة ارستقراطية ، كما كانت الكتابة باللاتينية في اوربا ، حتى في عصور متاخرة ، وانما كانت سمة شعبية عامة تشهد لتمثل الداغستانيين الكبير للثقافة العربية والادب العربي ( المترجم ) .

تؤكد ولا شك ، من جديد ، مدى توطد ورسوخ علاقات داغستان الثقافية مع الاقطار العربية(١١) .

وثمة حقيقة مهمة اخرى تتعلق بهذا العالم . فقد ذخرت في معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية ، مخطوطة كان قد استنسخها هذا العالم ، حوالي عام ١٦٦٤ .

ان هذه المخطوطة لا تثير اهتماما خاصا ، من حيث مندرجاتها ، ذلك انها تحتوي عملا ليس بالجديد قطعا ، غير ان نسق الكتابة يدعو الى التوقف والتامل . فاننا نلتقي ، هنا ، باسلوب خاص ، صيغ في الكتابة العربية في القفقاس ، في نظام رشيق متناسق ، تبقى كلية حتى وقت متاخر . ان هذا هو نظام اشارات وحركات خاصة تثبت فوق السطور وتحتها(***) ، مما يسهل فهم التراكيب الصرفية ، سواء منها البسيطة ام المعقدة . ومن الجدير بالذكر انه في الكتابة العربية في الاقطار العربية ذاتها ، وفي المناطق المجاورة التي انتشرت فيها اللغة العربية ، لم يكن قد اكتشف ، حتى يومنا هذا ، اثر ما لمثل هذا النظام . وهكذا يتعين اعتباره احدى الخصوصيات الخاصة بالكتابة العربية ـ القفقاسية .

وقد حير لغز هذه الاشارات مستعربينا الجادين ، امدا طويلا من الزمن ، وليس الا في عشية الحرب نفسها ، تمكن الباحث الشاب ا . م . بارابانوف(١٢) ، الذي استشهد عام ١٩٤١ في الجبهة بنجاح ، من فك شفرة المنظومة كليا . ان تاريخ المخطوطة يحدثنا ، على وجه التحديد ، اننا نستطيع اعتبار القرن السابع عشر بداية تلك المرحلة ، التي نشأت فيها القوى المحلية في القفقاس ادبا عربيا ، بل وطورت ، في اطار الكتابة العربية ، ملامحها المستقلة .

لقد عرف هذا الادب ، في مدى القرون الثلاثة لوجوده مرحلة واحدة للازدهار الكبير ، الذي يعتبر ذروة تطوره وتمتد هذه المرحلة من نهاية القرن الثامن عشر ، والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، حتى حدود السبعينات على وجه التقريب . وهو يعكس حركة المريدية الشهيرة في القفقاس ، وبصفة خاصة ، فانه يصور النضال طويل الامد الذي خاضه الامام الثالث ، الشهير ، شامل ، ضد الحكومة القيصرية .

(***) مع ان هذا النظام الرشيق المتناسق للاشارات والحركات الخاصة فوق السطور وتحتها هو سمة داغستانية خاصة في الكتابة العربية ، كما يؤكد كراجكوفسكي ، محقا ، الا انه لم يكن بعيدا عن متناول الاقوام الاخرى ، التي كتبت بالعربية ، وابدعت نظاما مماثلا . ( المترجم )

ففي هذا الوقت ، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر ، كان الادب العربي قد ابدع هناك مؤلفاته الكبرى ، واكتسب توسعا في الكم وثراء في النوع .

وعند نهاية القرن التاسع عشر ، يبارح رجالات هذا الادب الاساسيون خشبة المسرح ، بعد ان ضاق الامر بهم ، منذ امد طويل ، جراء الاحداث السياسية والحياتية العنيفة ، ويكتسب الادب طابعا مقلدا . لكنه يبقى امدا طويلا . فقد توفي الممثل الكبير لهذا الادب ، حسن الغادري ، المذكور ، غير مرة ، ليس في عام ١٩١٠ فحسب ، بل ان العشرينات تشهد ، جزئيا ، اشمارا لشعراء محليين ، سنتحدث عنهم في وقت لاحق . على ان الادب العربي في القفقاس يتلاشى بانتشار الكتابة باللغات الام بعد ثورة اوكتوبر ، حين تختفي الحاجة الى اللغة العربية كوسيلة متفردة للاختلاط بين القبائل ، ويتجلى ان دورها التاريخي ـ الثقافي بهذا المعنى ، وقد استنفد نفسه(*) .

## - ٦ -

ان منشورات مطبعة ماورايف العربية ، التي ظهرت في تمير ـ خان شوره ، في بداية القرن العشرين واستدامت حتى ثورة اوكتوبر ، تمنحنا فكرة معينة عن طابع الادب العربي هناك . وعلى اية حال ، فعلى هذا الادب يتعين الحكم ، اساسا ، وحتى يومنا هذا ، وفقا للشواهد المخطوطة ، والمقالات القليلة العدد جدا .

ان انشاءة هذا الادب امر ينبغي البدء به ببعض التحفظات ، التي ربما كانت غير ضرورية للعارفين بالثقافة العربية او بظروف تطور الحياة الثقافية في القفقاس الجبلي حتى القرن التاسع عشر ، ولكنها ضرورية لاولئك الذين يتناولون هذه الموضوعات للمرة الاولى . ذلك انه لا يصح التوقع ان يأتي الادب العربي في القفقاس بنتاجات تندرج في كنوز الادب العالمي ، حيث يوجد حقا غير قليل من الاضافات العربية . وفضلا عن ذلك ، فان من الصعب التصور

(*) للغة العربية تاثير بين في لغات شعوب اسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس ، وفي طاجيكستان ، مثلا ، تشكل المفردات العربية نسبة ٥٤٪ من اللغة الطاجيكية ، كما اثبتت ذلك الدراسات العلمية ، التاريخية اللغوية ، كما ان الحرف العربي ظل مستعملا في طاجيكستان حتى وقت متاخر جدا ( بحوزتي ديوان شعر لميرزا طورسون ازده ، شاعر طاجيكستان الاكبر ، عنوانه « چراغ ابدي » ، مطبوع بالحروف العربية ، في عام ١٩٥٨ ) ، غير ان دور اللغة العربية في داغستان كان دورا خاصا ، متميزا . ( المترجم )

بان الادب العربي في القفقاس يتدفق سيلا جديدا الى المجرى الواسع للادب العربي العام . فقد ظهر هذا الادب في القفقاس حين انتهت، منذ امد بعيد، المرحلة الابداعية للادب العربي العام. وبتطوره على نحو تأثير الثقافة العربية ، نشأ كادب اقليمي ، بطابع تغريبي يماثل ما كان للادب العربي الذي عاصره في افريقيا الوسطى ، والبلقان(**) .

ومع ذلك ، فان مغزى مثل هذا الادب كبير جدا، سواء من وجهة نظر المستعرب ، ام من وجهة نظر دارس الثقافة المحلية ، فانه بالنسبة للاول يرسم لوحة تطور احد الفروع الجانبية للادب العربي ، اما التقييم الكلي التأملي لهذا الادب ، اجمالا ، فيغدو ممكنا فقط حين تصبح كافة الظواهر المماثلة مضاءة تماما . وهو بالنسبة لمؤرخ الثقافة المحلية يقدم مادة لا تقدر بثمن ، تلتحم احيانا بالمصادر المكتوبة باللغات الاخرى ، كاللغة التركية او الروسية مثلا ، ولكنها غالبا ما تكون مستقلة ، فريدة من نوعها ، ليس لها ضريب وفي هذين المظهرين يمكن ان يصاغ المعنى العلمي العام للادب العربي في القفقاس(***) .

وليس من الصعب ان نلحظ وجود طبقتين في تركيبه .

فمن ناحية ، فان هذا هو الادب المدرسي النموذجي للقرون الوسطى ، الذي يجد مثيله ، بيسر ، في شرق بلاد العرب ومغربها ، في العصر المعني . انه ادب موسوعي ، ولكن في مركز اهتمامه تمثل العلوم الفقهية والقانونية ، وخصوصا التفسير والشريعة . ان الحكايات عن مؤسس هذا الادب في داغستان ، محمد من ( قودوتل ) ومعلمه الشيخ صالح ( من اليمن ) ، تظهر ، بوضوح ، ان العلماء الداغستانيين في ذلك العصر كانوا قد اتقنوا كامل علوم التراث العربي العام لتلك القرون . وعلى نحو متماثل كانت تهمهم العلوم النحوية والقواعدية ، ومع الاحاطة الانسكلوبيدية الواسعة لدى اكثرية العلماء فانه لا يندر ان نلتقي بين مؤلفاتهم بمباحث في الرياضيات ايضا ، فهي ضرورية ، بصفة خاصة ، لتقرير مسائل حقوق الوراثة ، او بمباحث في علم الفلك ـ وذلك لغرض حساب الوقت الدقيق لاداء فروض الصلوات والصيام .

ودون عناء وجد الشعر ، ايضا ، منفذا الى هذه البيئة . فقد درست ، هنا ، باهتمام ، اشعار مجنون ليلى شبه الاسطورية ، وتمتعت بالشعبية دوار بن حماسة القرن التاسع ، التي قلد الداغستانيون اشعارها بقوة . واحيانا ، كان بعض الشعراء يكتسب لديهم شعبية خاصة ، لاسباب غير واضحة بالنسبة لنا . ونمثل ، هنا ، بالابيوردي ، شاعر خراسان ، والذي كثيرا ما تصادف مخطوطة شعره في داغستان .

ان كافة المسائل المتعلقة بنسيج هذا الادب التقليدي المتداول في القفقاس لم تتلق ايما اضاءة لحد الان . ولا يمكن لشيء ، الا بعد تحليل هذه المسائل ، ان يحصل على تصور كامل عن طابعها ، وعلاقتها بالخط الاساسي للادب العربي كله .

وبالنسبة لنا ، فان ما يهمنا ، اكثر من ذلك ، هو ضرب اخر من الادب المتطور ، هنا ، نعني به الادب الاصيل ، الذي نشأ في التربة المحلية ، وبعكس ، على نحو اشد جلاء والقا ، الاحداث التاريخية المحلية . وقبل كل شيء ينبغي ملاحظة ان بحوزتنا قدرا كبيرا جدا من المصادر ، التي يندر وجودها في المجالات الاخرى ، وهي : الرسائل والوثائق ذات الطابع الرسمي والخاص . ان عددها يتعاظم في عهد شامل ، اما في الاعوام الاخيرة ، فان اهتمام الدارسين بدأ بالاتجاه صوب هذه الناحية : فان بعض العلماء يمكف على دراستها ليس في لنينغراد وحسب ، بل وفي موسكو ، وتفليس ، ومحج قلعة ايضا . وقبل امد غير بعيد ، توفي في روستوف على الدون ، البروفسور ن . اي. بوكروفسكي ـ الذي يكاد يكون المؤرخ الروسي الوحيد الذي لم يتهيب ، في سن متقدمة ، امام صعوبة امتلاك ناصية اللغة العربية ، وضع الكثير لدراسة هذا الانموذج من

---

(**) لعل من الصعب الاتفاق الكلي ، التام مع هذا الاستنتاج ، ذلك ان مرحلة اليقظة الفكرية العربية ابتدات في القرن التاسع عشر ، وازدهرت في بداية القرن العشرين ، وهي يقظة فكرية قومية تواكب النهضة القومية السياسية وتمهد لها . وبذلك فان المرحلة الابداعية في الادب العربي العام لم تنته في القرن التاسع عشر ، ( عصر ازدهار الادب العربي في داغستان ) ، بل انها بدات بداية حضارية قومية جديدة ، ولعل كراجكوفسكي يقصد القرون السابقة ( السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ) . ( المترجم )

(***) لاشك ان بامكان العلماء العرب المعاصرين ان يقدموا الكثير من الاضافات في قضايا العلاقات الادبية وتاثير الثقافة العربية الاسلامية في الثقافات العالمية . وعلى اية حال ، فان المستعربين والمستشرقين السوفييت قد اهتموا ، اهتماما خاصا بالمصادر العربية لدراسة تاريخ وثقافة واداب شعوب الجنوب السوفييتي . ( المترجم )

المصادر العربية لدراسة القفقاس في العصر الحديث(*) .

واذا كانت هذه المواد معروفة ، سابقا ، في الاوساط العلمية ، وبشكل استثنائي ، تقريبا ، عبر الترجمات المشوهة للتراجمة وذوي الخبرة غير العميقة ، فانها تنشر الان ، للمرة الاولى ، بأصل ، وترفق ، عادة ، بالدراسات النفصيلية . فالان فقط صرنا نتمتع بامكانية الحكم على التطور الرفيع لما يدعى بالاسلوب الرسائلي في القفقاس الذي يتميز ، غالبا ، بالتكثيف الشديد ، والتعبيرية القصوى ، وبالنفاذ والقوة البالغة ، التي تذكرنا بالنماذج الفضلى للعصر الكلاسيكي الادب العربي . ولعل هذا الاتفاق ليس صدفة ، فانه انما يتحدث عن المعرفة الجيدة بالادب العربي القديم . وسأورد مثالين لهذه الرسائل(**) .

ففي ربيع ١٨٥٥ ، كان البارون ل.ب.نيكولاي آمر الفوج القاباردياني ، قد اسر بعض المواطنين المسالمين من اطراف جارسكايا . وقد بلغ هذا مسامع شامل ، سوية مع خبر يفيد ان الاسرى المحتجزين سابقا قد نفوا الى سيبريا . وبهذه المناسبة ، حرر شامل الرسالة التالية الى نيكولاي ، في ٢٥ مايو ( ايار ) ١٨٥٥ .

[ « من امير المؤمنين شامل

الى قائد الروس،الجنرال ، الامير ، البارون.

اما بعد ، فقد بلغني انكم حجزتم الفقراء وعوائلهم ، الذين قدموا الى ولاية جارسكايا ، للتمون ، وذلك لاستبدالهم بالاسرى الذين بين ايدينا . ان هذا لعار عليكم، اي عار ! وكذلك فانكم تنفون اللاجئين الذين اسرتموهم منا ،

(*) يشير كراجكوفسكي ، اشارات غنية الى دور بوكروفسكي في دراسة التراث العربي القفقاسي كمصدر لبحث تاريخ وتطور شعوب القفقاس تاريخيا ، واجتماعيا وثقافيا ، ولاسيما الشعب الداغستاني ، الذي كان اكثر شعوب القفقاس تاثرا وتمثلا للثقافة العربية الاسلامية . وتاتي هذه الاشارات في جملة دراسات لكراجكوفسكي، من بينها الدراسة الموسومة ( مخطوطات جديدة لتاريخ شامل ) . ( المترجم )

(**) فصل كراجكوفسكي الحديث في امر هذه الرسائل ، وما يتعلق بها ، في مجموعة دراسات عن رسائل شامل ، والمخطوطات العربية التي تبحث وقائع شامل وغزواته وذكريات كتاب هذه المخطوطات عن عصر شامل وثورته ، وسواها . وقد نشر ذلك كله في الفصل الكبير المعنون « الثقافة العربية في القفقاس الشمالي » في مختارات كراجكوفسكي . ( المترجم )



الان وسابقا الى سيبريا ؛ فلتعرفوا انكم بهذه الفعائل لا تسخرون منا ، بل تسخرون من انفسكم ، وتبعثون اسراكم، بفظاعتكم هذه ، الى القبر . ذلك انه اذا ماكانت لديكم سيبريا، فان لدينا القبر . وبالنتيجة ـ فاما ان تطلقوا سراح اللاجئين الاسرى ، بدءا بالبشير ـ او تعلمونا انكم لا تهتمون برعاياكم ولا تحرصون عليهم الحرص والاهتمام الكافي . والان فاننا ننتظر الجواب عن هذا ، ولا يقلقنا امر ماذا تفضلون وماذا تختارون ، ولكن اجيبوا دون مطل او تسويف »(١٣) ] .

وبهذه اللغة كان شامل يحسن التحدث حتى مع مواطنيه ايضا ، حين يرى ذلك ضروريا . ففي شتاء ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ كان سكان بعض القرى قد انتقلوا الى الجانب الروسي ، فوجه شامل انذاك اليهم الانذار التالي :

[ « من الفقير شامل الى كافة سكان قرى داجو باروا، واولو سقرط واطرافها ـ السلام على من اتبع الهدى !

اما بعد ،

فقد بلغني انكم صرتم من الجناة ، بل وحتى من الخارجين على الطاعة . فلتعدوا الاكفان لحربكم مع الله ، فقد اعلنت عليكم الحرب وليعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » ](١٤) .

## ـ ٧ ـ

ان المغزى التاريخي البالغ لكافة هذه المصادر الوثائقية معترف به في الاوساط العلمية . وحين تغدو اكثرينها ميسورة في طبعات معتمدة تنشأ امكانية تقييمها من وجهة النظر الادبية التي تستحق كما هو واضح ، اهتماما لا اقل من غيرها .

ان عصر شامل يطرح ، للمرة الاولى ، فيما يبدو ، في الادب العربي في القفقاس ، جملة مدونات تاريخية كبيرة ذات اصل محلي . ومن هذه المدونات ظلت واحدة فقط موضوعا لاهتمام الدارسين الخاص ـ حتى ايامنا الحاضرة هذه . ووفقا للعرف القديم ، فانها تحمل تسمية مقتطفة « بارقة السيوف الجبلية في بعض الغزوات الشاملية »(***) .

(***) يقول ابن محمد طاهر ، حبيب الله ، عن كتاب ابيه هذا : « وسبب جمعه ان الامام .... كان يقول لمحمد طاهر مرة بعد مرة اني اريد جمع ما جرى لي زماني من

←

وهي تعود لمحمد طاهر ، الاقاري من طائفة الفاراخ ، والذي كان سكرتيرا لشامل ، وقتا من الاوقات . وكان قد بدىء بها بمبادرة شامل نفسه ، في خمسينات القرن التاسع عشر ، وانتهت بعد وفاته . في السبعينات ، حين غدا الكاتب يعيش في ظل الحكم الروسي . ان مثل هذه المدة الطويلة ، ومثل هذا التبدل التام في الوضع ، السياسي كان ينبغي ان ينعكس ، بقوة ، في طابع الكتاب ، وتفاصيله ، وبنائه العام ، الذي هو ليس بالمتماسك دائما ، ولا يخلو من التناقضات .

ويعتبر هذا السجل ، بتغطيته تاريخ داغستان من بداية القرن التاسع عشر الى اسر شامل ، مصدرا من الدرجة الاولى لكل هذه الفترة . وقد نشرت ترجمته بقلم أ.م. بارابانوف ، قبل امد قصير من الحرب . وكان هو نفسه قد اعد نشر النص العربي ، الذي اخرته الحرب ، فلم يطالع النور الا في عام ١٩٤٦(١٥) .

وبشكل موازاة طريفة لهذا السجل ، سجل وضعه عبدالرحمن ، صهر شامل ، وكان قد بدأ باعداده حوالي عام ١٨٦٤ ، ولكنه تكامل خلال عشرين عاما . واذا كان محمد طاهر يتوقف ، بصورة استثنائية ، تقريبا ، عند الفترة السابقة المحدودة بأسر شامل ، فان عبدالرحمن ، على العكس من ذلك ، يصور ، على نحو اساس ، فترة حلوله في روسيا .

فان اهتماما خاصا يمنح ، في هذا السجل ، لحياة شامل ، الاسير في كالوغا ، ومشاهدة كافة معالمها مثل مصنع الورق او معمل السكر ، والارتحال الى بطرسبورغ بالسكة الحديد ، للمرة الاولى ، من موسكو . وقد حل آنذاك في ( كراسنويه سيلو ) ، وفي (بيترغوف ) ، حيث استهوته نافوراتها الشهيرة وقد شاهد شامل في ( كرونشتارت ) ، خصيصا ، ترسانات الاميرالية ، اما في بطرسبورغ ذاتها فقد شاهد مصنع الزجاج ، ودار العملة ، وحديقة الحيوانات ، ومرصد بولكوفسكايا .

ان مؤلف عبدالرحمن ، الفريد من نوعه ، مهم بشكل منكافىء ، سواء بالنسبة لسيرة حياة شامل ام بالنسبة للوحة الحياة الروسية في بداية الستينات

الوقعات ولكني لاانفرغ لذلك لشواغل من امور وحروب. ثم في شتاء سنة اسكنه عنده في داره في درفيه وكنا يجتمعان بين العشائين في حجرة ويلقي سفمويل وبخبر ما جرى بالعجمية فيترجم محمد طاهر بالعربية ويكتب نهارا ما اخبر حينئذ » ـ عن كراجكوفسكي .( المترجم)

ويعود هذا المؤلف ، من حيث لونه الفني ، الى النماذج التقليدية للادب العربي المتأخر . فان كاتبه مفعم للغاية بالمادة التقليدية ، وهو يقتبس الاشعار والامثال ، ويورد الطرف والنوادر التاريخية عن الخلفاء ، ويقص الحكايات والاساطير . وهو ينظم اشعاره ، في كل مناسبة ، دونما عناء يذكر ، ويتذكر بذات الطواعية والسهولة مقتطفا ت كبيرة او صغيرة من مؤلفات الشعراء القفقاسيين الاخرين .

ان تسجيلات عبدالرحمن(*) تنتظر دارسها : فحتى الان لا تعرف هي الا عن طريق المخطوطة الجيدة المحفوظة في معهد الاستشراق ، التي ربما كتبت بخط المؤلف . وكذلك عبر الترجمات غير المرضية تماما لبعض مقتطفاتها(١٦) .

لقد توطد في داغستان ، بشكل راسخ للغاية ، التقليد العربي القديم في التأليف التي يتناوب فيها النثر والشعر . ففي عام ١٩١٣ ، وفي عشية الحرب العالمية الاولى ، كانت مطبعة م. ماورايف قد اخرجت كتاب حسن الفادري ، المتوفى قبل ثلاثة اعوام من هذا التاريخ ، والمذكور غير مرة في بحثنا هذا ، وذلك تحت عنوان «ديوان الممنون » ( وبالذات ، « اشعار الممنون » ، كما اسمى المؤلف نفسه شعرا ) . وفي الجوهر ، فان كتابه هذا هو سيرته الذاتية ، التي سطر فيها ، في تسلسل زمني ، اشعاره التي نظمها في مناسبات مختلفة ، وادرج ضمنها ، جزئيا ، رسائله ايضا .

ويحظى هذا الكتاب باهمية استثنائية بالنسبة لكافة الاحداث ، التي كان المؤلف شاهدا عليها ، طوال حياته المديدة ، فبالتفصيل يصور المؤلف اقامته في سباسك ( من اعمال محافظة تامبوفسكايا ) ، الى حيث كان قد نفي ، بسبب حركة السبعينات في القفقاس(**) . ويقدم الكاتب مادة ذات اهمية من

(*) المقصود بذلك ـ « خلاصة التفصيل عن احوال شمويل لكاتبه المؤلف سيد عبدالرحمن جمال الدين الحسيني الغازي قموقي الدافستاني، في كالوغا، سنة ١٢٨١هـ »، ويقول فيها مؤلفها : ( ثم من المعلوم البين انه لا يخفى على منصف فطن اني الفت هذه الكراسة تصديقا لقوله تعالى واما بنعمة ربك فحدث لا طمعا لما في ايدي من ذكروا فيها من الامراء العظام والوجوه الفخام .. ) ـ عن كراجكوفسكي، المختارات ،فصل : الثقافة العربية في القفقاس الشمالي ـ ( المترجم )

(**) تؤكد الدراسات التاريخية السوفيتية المعاصرة ان هذه الحركات السياسية القفقاسية وما ماثلها في النضال ضد الاستبداد القيصري ، حركات ذات طابع تحرري ثوري رغم غطائها الديني ، احيانا . ( المترجم )

الدرجة الاولى لفهم كل ايديولوجية تلك التجمعات المنفذة ؛ التي كان حسن القادري ممثلها ، خلال عقود عديدة . واستنادا الى هذا الكتاب ، تتحصل لدينا امكانية لا تكاد تتكرر ، للحكم على تطور الابداع الشعري ، لشاعر عربي ـ قفقاسي ، في كامل حياته.

- ٨ -

لقد وجدت اشكال الشعر العربي القديم صدى حيا لدى الداغستانيين . فقد صنف هؤلاء ، شعرا ، مدونات الاحداث المعاصرة ، وردوا بالاهاجي على اي عمل تقوم به التجمعات المعادية(***) وعقب ممثلو هذه التجمعات ، بدورهم ، باشعار ، كان مشترطا فيها ان تكون ، بالتاكيد ، بذات البحر ، وبذات القافية ، وذلك بالضبط مثلما انطلق الشعراء العرب القدامى ، مؤلفين ، احيانا ، مجموعات كاملة لما دعي بالنقائض ـ اي اشعار الهجاء المتبادل(١٧) .

وبالطبع ، فان كل هذا الشعر كان كتبيا ، في الجوهر ، متشبعا بتقاليد النماذج القديمة ، ولكنه غالبا ما كان يبلغ درجة رفيعة من القوة ، اما في الشعر الوجداني فكانت تتردد ، على نحو غير متوقع احيانا ، نغمات مؤثرة حقا . كتلك المراثي التي نسبت لعالم داغستاني ، شهير جدا ، في الثلث الاول من القرن التاسع عشر . وقد احتفظ هذا الشعر بحيويته ، أمدا طويلا ، بل ان كثيرا من نماذجه معروف لدينا في القرن العشرين ايضا . وحين ظهرت امكانية اقامة تمثال عند قبر حاجي مراد ، المشهور للجميع عبر كتاب ليف تولستوي ، فان شاعرا آفاريا رثاه بمرثية بليغة .

ولا يصح ، هنا ، ان ننكر على هذه الاشعار قوتها المفردة ، التي تذكر ، على نحو وثيق ، بالمراثي العربية القديمة ( بكائيات الموتى ) . وقبالة هذه الاشعار ترن ، بلطف ، احيانا ، القطع الوجدانية التي غالبا ما تذكر ، ايضا ، بالنسيب العربي القديم ( ذكريات الشعراء عن حسان النساء ) .

- x -

(***) يذكر حبيب الله ، ابن محمد طاهر القراخي ، في كتابه ، ان الحاج يوسف اليخساري اظهر الشمائلة بمصيبة شامل رد في نظم فصيح ، بسبب صريح ، فعارضه هذا البائس الفقير محمد طاهر بحاوره ... ووضع عقب كل بيت من نظمه بيتا ليتلاصق مقصوداهما ، ويتلاحق مقوداهما ... » ـ عن كراجكوفسكي ، المختارات ، فصل ( الثقافة العربية في القفقاس الشمالي ) ـ ( المترجم )

ان كل هذا الشعر ، وخصوصا ذلك اللون الحافل بالعبرة والعظة والارشاد ، اي شعر الحكمة والقول المأثور ، قد وجد انعكاسه في مرافق الحياة جميعا . فقد اضطلع عالم آفاري ، يتقن اللغة العربية ، اثناء رحلات عمله في عشرينات ـ ثلاثينات القرن ، وبشكل عابر ، بمهمة طريفة جدا ـ وهي رصد كل الكتابات والنقوش المتبقية على المباني ، والمذكورة في مختلف الاشياء ، بخاصة . فاستطاع ان يسجل حوالي ( ٦٠ ) بيت شعر وقول مأثور وحكمة ، ونشأت بذلك ، لوحة غاية في الطرافة والاهمية ، تتحدث عن مدى العمق ، الذي نفذت به هذه الحكم العربية والمقتطفات الشعرية المأثورة الى اغوار الحياة(***) .

ومن الطبيعي ، فانه غالبا ما تصادف هذه الكتابات منقوشة على صفحات الاسلحة اليدوية . وكانت احدى العبارات المأثورة ، الاثيرة لدى الامام الاول غازي محمد هي التي تقول : « من سل سيف البغي قتل به »(*) وكثيرا ما ظهرت مثل هذه العبارة على نصال السيوف . وقد نقش على احد الخناجر هذا البيت من الشعر :

لا تسقني ماء الحياة بذلة
بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ويعكس الحقيقة الابدية بيت شعر منقوش على خنجر اخر ، يقول :

لا تقطعن ذنب الافعى وتتركها
ان كنت شهما فالحق راسها الذنبا

ويتحدث نقش محفور على كنانة عن مثل هذه القاعدة الواقعية التي مفادها :

« قبل ان ترمي قوسك ، املأ كنانتك »

وثمة نقوش ذات عبرة بليغة تغطي ، احيانا ، سطوح صناديق الكتب ، مفادها : المعرفة في القلب

(***) آثرنا ان نترجم بعض الابيات الشعرية التي لها اصل عربي ، بالفعل ، اما الابيات الشعرية العربية التي نظمها شعراء داغستانيون فلم نترجمها ، لصعوبة الرجوع الى اصلها العربي ، ولان ترجمتها نثرا يذهب بجوهرها الشعري ، وحسبنا ما اقتطفنا هنا (المترجم)

(*) هذا مثل عربي اثبتته كتب الامثال العربية (ينظر «دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » ،لكاتب السطور، ص ٢٠١ ( المترجم ) .

وليست في وفرة الكتب . والمظلمة في نفسك ذاتها ، وليس في نبل المحتد(**) .

(**) كل هذه الترجمات ( عدا ترجمة الاشعار العربية ـ التي ارجعناها الى اصلها العربي) هي ترجمات تقريبية، ولذلك لم نقل ( هذا نصها ) ، بل اثبتنا مفادها ، اما اصلها ، المكتوب باللغة العربية ، فينبغي البحث عنه في مخطوطات داغستان ، وارشيفاتها ومتاحفها ، للعثور على النص الاصلي . ومع ذلك فان ترجمة الامثال والاقوال المأثورة ، بهذا الشكل الذي قمنا به ، لم تذهب بجوهرها ، فترجمة النثر لاشك اكثر قربا الى الاصل من ترجمة الشعر المنظوم بالعربية .

وقد اطلعني طالب دكتوراه ، داغستاني ـ اثناء دراستي في الستينات في جامعة موسكو للدكتوراه ، على العديد من اشعار المتنبي التي باتت حكما تترنم بها الشفاه ، وخصوصا من الجيل القديم ، بل هي لازالت متداولة ، بهذا الشكل او ذاك ، في اوساط واسعة من الداغستانيين المعاصرين . وأبادر للقول اني لا استكثر ذلك ، فقد تأكدت منه بنفسي في مقابلاتي مع كثير من الداغستانيين في موسكو وداغستان ( ذلك ان الداغستاني يتمثل مثل هذا الشعر ، لانه يخلد البطولة والمقاومة، ويمجد العلم والمعرفة ، والصداقة والصديق الوفي المخلص ،والحرية ، والشرف ، وعدم الاستكانة للضيم او الذل ـ وكل هذه قيم يمجدها الجبليون عموما ، والداغستانيون خصوصا ، ويكفي ان نشير الى ثورة الامام شامل والشعب الداغستاني على القيصر والامبراطورية الروسية ، مع قلة العدد ونقص السلاح ) ... ومن ذلك الابيات التالية ، مثلا لا حصرا :

ـ فاطلب العز في لظى وذر الذل
ولو كان في جنان الخلود
بقتل الماجز الجبان وقسه (م)
بعجز عن قطع بخنق المولود
ويوفي الفتى المخشى وقد
خوض في ماء لبة الصنديد
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفسي فخرت لا بجدودي

ـ ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

ـ ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش اشغال

ـ فقر الجهول بلا عقل الى أدب
فقر الحمار بلا رأس الى رسن

ـ من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

ـ لا يعجبن مضيما حسن بزته
وهل ترى دفينا جودة الكفن

ـ لايسلم الشرف الرفيع من الاذى
حتى يراق على جوانبه الدم

ـ اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا

ولدى آقاري اخر كانت ثمة عبارة حكمية موجزة منقوشة على صندوق للكتب تقول ما مفاده: العقل يهاب ما لا يهاب السيف(***) .

واحيانا ، فان الكتابات تظهر على المنشآت انسلميه . فعلى مستودع للحبوب كان قد كتب ما مفاده : يجود الزرع ان جاد البذار . ولا تنسى انساء ، ايضا ، في هذه الكتابات . فعلى مغزل ابنة عالم آقاري من القرن السابع عشر كان ثمة نقش مكتوب يقول ما مفاده : النساء ـ ملهمة اعمار الرجال .

ولاتبدو هذه الكتابات ، دائما ، بريئة تماما ، وهكذا . فعلى احد القبور كان قد كتب : « لكل فرعون موسى » . وعلى سقف احد المساكن كان ثمة نقش ينص هكذا : دم الملوك شفاء من السعار . وفي الطب العربي القديم كانت مثل هذه الفكرة موجودة بالفعل . ولكن معنى النقش هنا يصعب فهمه حرفيا(****) .

ـ واذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الاجسام

ـ شر البلاد بلاد لا صديق بها
وشر مايكسب الانسان ما يصم

ـ وليس يصح في الافهام شيء
اذا احتاج النهار الى دليل

ـ وليس حياء الوجه في الذنب شيمة
ولكنه من شيمة الاسد الورد

مرارا قابلنا ذلك بالمأثورات الحكمية الشعبية الداغستانية المعاصرة وتجسيدها، فنيا، في اشعار رسول حمزاتوف ونثره ( موطني داغستان ) وقصص احمد خان ابي بكر وغيرها ، فاننا سنجد الصداق البليغ على ذلك

( المترجم )

(***) « العقل يهاب مالا يهاب السيف » ، مثل عربي مشهور تكرره كتب الامثال العربية ( ينظر ، « دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » ص ٧٨ لكاتب السطور ) ( المترجم )

(****) يؤكد كراجكوفسكي وسواه من المستعربين والمستشرقين السوفييت ان الطب العربي القديم يؤكد على مثل هذه الفكرة ، وعلى العموم فان هذه الفكرة شائعة لدى كثير من المستشرقين غير السوفييت ، وربما كانوا يقصدون بذلك ان نزوع العرب الى الحرية ، وتميزهم بالاباء وقوة الشكيمة وعدم الخضوع للظلم او جور او طغيان ، يجعلهم لا يعبأون بالملوك والسلاطين ، شعارهم : اذا الملك الجبار صعر خده ... الخ

( المترجم )

ولا ينبغي الاعتقاد بان كافةهذه الاقوال المأثورة او الاشعار كانت قد الفت في القفقاس ذاته ؛ فعلى العكس ؛ فان معظمها يمثل شذرات من ذلك الرصد الذهبي العام للادب العربي ؛ الذي كان معروفا جيدا في كافة الاقطار ؛ التي كانت تعكس الثقافة العربية . ان ما هو مهم هو انها دخلت ؛ هنا ؛ في نظام الحياة اليومي المعتاد . انها تظهر ؛ بمنتهى الجلاء ؛ ان هذا الادب بالنسبة للقفقاس لم يكن شيئا غريبا ؛ او زينة مستوردة مقصود منها سعة العلم الظاهرية ؛ بل كان شيئا عاشوه بالفعل . فان هذه المدونات والسجلات قد قرأها الناس في الواقع واعتادوا قراءتها ؛ مكابدين بتأثر ؛ من جديد ؛ وعائشين الاحداث المعكوسة فيها . وقد وجدت هذه الاشعار فعلا ؛ صداها في المشاعر الحية لكل انسان هناك ؛ وطمنت نزوعه ومزاجه في لحظات معينة من الحياة . وفي هذه الحكم والاقوال المأثورة ؛ التي كانت تطالع ابصار الجميع ؛ كل يوم ؛ كان الناس تأملون . حقا ويصوغون ؛ غالبا ؛ مثلهم ؛ طبقا لها وعلى هديها .

— ١٠ —

وهكذا ؛ فان هذا الادب العربي الاقليمي ؛ المحلي في القفقاس قد اكتسب مغزى عاما وواسعا — ليس فقط كمصدر تاريخي ؛ وليس فقط كمادة من مواد علم دراسة الادب ؛ بل كوثيقة انسانية حية ؛ ايضا ؛ تتطلب ؛ باستمرار ؛ اهتمام المعاصرين بها .

ان دراسة مثل هذا الادب واجب من الدرجة الاولى على العلماء الروس وعلى علماء مختلف شعوب اتحادنا السوفييتي ؛ عامة . وفيما يبدو ؛ فان هذه الحقيقة باتت مفهومة الان لا في المركز فحسب ؛ بل وفي الاماكن المعنية ذاتها ايضا . ففي ( محج قلعة ) ؛ عاصمة داغستان ؛ ولدى قاعدة اكاديمية العلوم السوفييتية ينشأ ارشيف خاص للمخطوطات الشرقية ؛ اصبح احدى مهماته حفظ ؛ ونشر ؛ ودراسة الشواهد والوثائق المخطوطة السالمة .

ويمكن التأميل — انه بغض النظر عن الخسائر الفادحة في اعوام الحرب ؛ وبجهود موحدة ؛ سنجد مهمة دراسة التراث الثقافي للادب العربي في القفقاس في هذا الميدان ايضا ؛ الطريق الصحيح للايفاء بها(*).

---

(*) ان تعقيبنا الاخير ؛ هنا — ان هذه المهمة التي بجملها المستعرب الجليل ؛ الراحل كراچكوفسكي بهذه الصيغة « مهمة دراسة التراث الثقافي للادب العربي في القفقاس » — انما هي مهمة من الدرجة الاولى بالنسبة لنا ؛ نحن العرب المعاصرين . فنحن أولى الناس بتراثنا ؛ ونحن ؛ قبل غيرنا ؛ اجدر الناس بهذا التراث ؛ وبوثائقه الشرعية ؛ وببحثه ودراسته ؛ في كافة امتداداته وتأثيراته الثقافية والتاريخية والعلمية . واننا لنعتقد ان جهودنا ينبغي ان تضاف الى جهود المستعربين الاصدقاء في دراسة هذا التراث الثقافي لا في القفقاس فحسب بل في آسيا الوسطى وطاجيكستان ؛ وسائر بلدان الاتحاد السوفيتي ؛ فان مخطوطات وآثار داغستان والذربيجان وتفليس وبرلان ودوشنبه وطاشقند وسمرقند وبخارى وموسكو ولينغراد وقازان وأوفا وساراتوف وطاژاخستان العربية الاسلامية هي كنز ثقافي فخم ينبغي علينا استكشافه ودراسته، مثلما ينبغي علينا دراسة اللهجات العربية لعرب آسيا الوسطى السوفيتية لنفس الاسباب ايضا . ( المترجم )

* * *

## هوامش المؤلف

(١) W. Barthold. DAGHESTAN. EI, I, p. 929.

(٢) I. U. Krachkovski. DAGHESTAN I EMEN. SB. "Pamiti N. Marra", M. - L., 1939, pp. 364 - 365.

( من المترجم — يشير كراچكوفسكي ، هنا ، الى دراسته « داغستان واليمن » ، وقد نقلناها الى العربية ، وقدمناها الى « الورد » ) .

(٣) ( المحبي ، خلاصة الاثر ، القاهرة ، ١٢٨٤هـ ) .

(٤) C. Snouck Hurgronje. Mekka. II. Haag. 1889, p. 255 - 256.

(٥) ان استنتاجات مؤلفه الجورجي مبنية ، جزئيا ، بقلمه في :

"ISTORIA SSSR", (III - IV, M. - L. 1939, Na pravakh rukopisi), p. 340 - 361.

(٦) من معطيات ف . تسيريتيلي ، العضو المراسل لاكاديمية علوم الاتحاد السوفييتي .

(٧) A. N. GENKO. Arabski iazik i Kavkazovedenie. Trudi Vtoroi sesic Assotsiatsi arabistov, M. - L., 1941, p. 100.

(٨) Ibid, p. 98.

(٩) Ibid, p. 93.

(١٠) Ibid, p. 99 - 100.

(١١) I. U. Krachkovski. DAGHESTAN I EMEN. p. 359.

( كراچكوفسكي ـ داغستان واليمن ) .

(١٢) A. M. Barabanov. Poiasnitelnie znachki v arabskikh rukopisiakh i dokumentakh Severnovo Kavkaza. sv, III, 1945, p. 183 -214.

(١٣) G. V. Tsereteli. Vnov naidonnie pisma Shamilia. Trudi pervoi sesie Assotsiatsi arabistov. M. - L., 1937, p. 103 - 106.

(١٤) I. U. Krachkovski i A. N. Genko. Arabskie pisma Shamilia v Severo-Oseti. sv, III, M:-L., 1945, p. 41-42.

(١٥) Khronika Muhammeda Tahira al-Rarakhi o dagestanskikh voinakh v period Shamilia. Perevod s arabskovo A. M. Barbanova, M.-L., 1941; to je, arabski tekst, podgotovlenni A. M. Barabanoviem, M. - L., 1946.

(١٦) I. U. Krachkovski. Arabskaia rukopis vospominanie o Shamile. ZIV, II, 1933, p. 9-20.

(١٧) لقد قمت بكل الترجمات المثبتة لاحقا ، استنادا الى النصوص غير المنشورة لمجموعة طالب دكتوراه العلوم لدى اكاديمية علوم الاتحاد السوفيتي ، ا . س . سميلوف ، التي وضعها تحت تصرفي .

★ ★ ★